

العالم الاسلامى

والدراسات النفسية المعاصرة

البخارى حمانة

عرف العالم العربى الاسلامى شأن غيره من العديد من بلدان العالم الثالث علم النفس وغيره من العلوم الانسانية الأخرى عن طريق الغرب الذى كان قد نجح قبل ذلك بكثير فى استعمارها المباشر أو غير المباشر على أكثر من شعب من شعوبه .

غير أن معرفته بعلم النفس تميزت بخصائص ثلاث :

- تمثلت الأولى فى تأخر معرفته بهذا العلم الذى لم يبدأ فى الدخول الى البعض من جامعاته، التى كانت أقل من القليلة، الا فى الاربعينات من هذا القرن عكس الكثير من العلوم الانسانية الأخرى التى سبقت له معرفة الكثير منها منذ مطلع هذا القرن .

- وتمثلت الثانية فى أن تلك المعرفة قد تمت له فى وقت

كان فيه علم النفس، الذى قد استقل عن الفلسفة منذ القرن التاسع

عشر، قد قطع اشواطاً لا بأس بها على طريق محاولاته اللحاق بالعلوم التجريبية الأخرى خاصة الفيزياء.

- أما الخاصية الثالثة والأخيرة فقد تمثلت في قلة الاهتمام الذي أثاره علم النفس في العالم العربي الاسلامي وفي العالم الثالث كذلك، بالنسبة للاهتمام الذي اثارته حولها بقية العلوم الانسانية الأخرى، حيث قوبل من طرف أغلبية القطاعات الاجتماعية بنوع من عدم الاكتراث (إذا ما استثنينا ذلك الاهتمام الذي لقيته بعض القصص البوليسية وبعض الأفلام السينمائية ذات الطابع النفسي والامريكية في الغالب)

ولعل ذلك الموقف راجع أساساً الى اقتصار الدراسات النفسية الغربية في البداية على بعض القبائل التي كانت توصف من طرف الغرب بالبدائية (دراسات م. ميد M. Mead) و الى الطابع المحايد في ظاهره على الأقل، للمواضيع والقضايا التي تناولتها تلك الدراسات، وذلك مثل الاحساس والادراك والذكاء والذاكرة، والتعليم الخ... تلك المواضيع التي لم تصادم نتائجها بصورة مباشرة حساسية الجماهير العربية الاسلامية ولم تولد لديها بالتالي رد فعل أنى كذلك الذى ولدته لديها الدراسات الغربية الأخرى للدين الاسلامي .. أو للتاريخ أو للفلسفة الاسلامية أو للغة و الأدب العربيين .

بذلك نفهم كيف انحصر الاهتمام بعلم النفس في العالم العربي الاسلامي خاصة، وفي العالم الثالث عامة في تلك القلة القليلة من أبنائه ولماذا لم يتجاوز تواجده النظرى غالباً، بعض الاقسام في بعض الجامعات الأقل من القليلة التي أقامها المستعمر لأبنائه أساساً، في البعض من بلدان هذا العالم (جامعة الجزائر ... مثلاً) أو التي أقامتها البعض من الدول العربية الاسلامية المستقلة سياسياً (قسم لعلم النفس

بجامعة عين شمس (مصر) ، كرسى لعلم النفس العام وآخر لعلم النفس التجريبي فى جامعته استامبول وأنقرة (تركيا) ومعملان لعلم النفس فى جامعته داكا والبنجاب (باكستان) (١) .*

هكذا استمرت الدراسات النفسية فى العالم العربى الاسلامى وفى العالم الثالث بشكلها الغربى من حيث المنطلقات والمفاهيم والنتائج، فى التواجد دون تأثير يذكر لها .

وكان يجب انتظار الستينات من هذا القرن وشروع العالم العربى الاسلامى، والعالم الثالث، اثر التحرر السياسى الذى شهدته معظم دوله فى محاولة اعادة بناء مجتمعاتها وللحاق بالغرب ، ذلك البناء الذى ارادته شاملا وسريعا، لكى تبدأ تلك الشعوب فى الاستنجاد بكل مايمكن ان يفيدها من تلك العلوم الغربية .. ومن بينها علم النفس ..

واذا كانت وجدت فى البعض من تلك العلوم خاصة العلوم التكنولوجية والاقتصادية والادارية الخ مايمكن أن يعينها على تحقيق مشاريعها التنموية تلك فانها بالنسبة لعلم النفس بالذات ، ولعلم الاجتماع كذلك، سرعان ما تبينت مدى عمق الهوة التى تصل منطلقاته ومفاهيمه ومواضيعه ونتائجه عن تلك المشاكل الحادة والمتميزة التى بدأت تتخبط فيها .

اذ ذاك فقط تبدأ شعوب العالم العربى الاسلامى ومعها شعوب العالم الثالث، فى الوقوف موقف التشكك حتى نقول موقف التنديد بعدم جدوى تلك الدراسات والقائمين عليها كذلك، بالنسبة اليها،

* يبدو أن المؤلف الفاضل لم يطلع على التطورات الأخيرة حول وضع علم النفس ودراسته بباكستان . فقد أصبح علم النفس يتقدم بباكستان أكثر مما مضى من بين العلوم الاجتماعية . ووجد الآن عشرة أقسام للدراسات العليا فى هذا الميدان فى أنحاء باكستان المختلفة . وتوفر فى أكثر أقسام الدراسات العليا التسهيلات الضرورية للمعامل مع أنها مراكز للتدريس أكثر من البحث كما يوجد هناك معملان لعلم النفس ، أحدهما بكراتشى والآخر بـلاهور . وفوق هذا يوجد فى اسلام آباد معهد وطنى لعلم النفس تحت اشراف وزارة التربية الفيدرالية — رئيس التحرير

دافعة بذلك ولاول مرة الاخصائيين الغربيين والمتلمذين عليهم من ابنائها (٢) الذين ظلوا مشدودين الى تلك الدراسات الى درجة جعلتهم يهملون تلك المشاكل الصارخة التي تتخبط فيها مجتمعاتهم ولايهتمون الا بالبرهان على القيمة الاكاديمية لاعمالهم أمام اساتذتهم وزملائهم الغربيين) الى محاولة الاقتراب بصورة أكثر جدية وموضوعية من واقع هذا العالم .

بذلك أخذت الدراسات النفسية الغربية فى العالم العربى الاسلامى، وفى العالم الثالث، ومنذ السبعينات على وجه التحديد، منعظفا جديدا لم يلبث أن انتهى بها الى مراجعة للعديد من مسلماتها والى التسليم فى النهاية بأن شعوب هذا العالم ليست ،،بدائية،، أو متخلفة بالطبيعة كما كانت تتوهم أو تحاول أن توهم هذه الشعوب، بل انها مختلفة فقط حضاريا وثقافيا واجتماعيا عن الشعوب الأوروبية .. ولأنها كذلك فان مفهومها للحياة وللوجود وسلوكها تجاههما يختلف عن مفهوم الغرب لهما وعن سلوكه تجاههما.

فالمفهوم الاسلامى للحياة وللوجود وللانسان ولمصيره يقوم أساسا على اعتبار ذلك الوجود وما فيه من صنع الله ومن حفظه كما يقوم على تخصيص الانسان، أهم عنصر فى ذلك الوجود بصفة التكليف (٣)، التى تجعله أهلا لتلك الامانة التى تحملها بعد أن أبت السموات والأرض والجبال حملها اشفاقا منها والتى ليست شيئا آخر، سوى الرعاية لحقوق الله .

هذا المفهوم يختلف شكلا ومضمونا عن المفاهيم الغربية الحديثة للانسان وللوجود ، تلك المفاهيم التى تقوض معظمها الايمان بالله داخل الانسان الاوروبى وتسلمه لمتاهات المادية والقلق واليأس .

ونفس الاختلاف يصدق على المفهوم الاسلامى للعلاقة بين النفس والجسد تلك العلاقة التى لا تقوم على التناقض والتنافر كما تصورت الفلسفات الغربية بل على التآزر والتكامل .

والمفهوم الاسلامى للسلوك ولدوافعه مفهوم يأخذ بعين الاعتبار متطلبات الروح دون أن يضحى فى نفس الوقت بضرورات الجسد .. للانسان الذى (خلق على رتبة بين البهيمة و الملك) كما يلاحظ ذلك الغزالي .. وبذلك فان هذا المفهوم لا يغرق الانسان فى الجانب المادى المحض كما فعلت الفلسفات المادية أو النزعات الروحية المحضة كما أرادت بعض النحل الشرقية .

والتصنيف الاسلامى للوظائف النفسية يقوم على وحدة هذه الوظائف التى لا يعنى تعددها، تعددا فى الذات الانسانية .. وبذلك فانه يختلف عن التصنيف الغربى الذى يحصر تلك الوظائف فى الاحساس والذكاء والارادة، ويقول بانفصالهما(٤) .

ان هذه الاختلافات فى المفاهيم، وغيرها، نجد العديد من أمثالها لدى شعوب العالم الثالث الأخرى غير الاسلامية خاصة لدى الهند التى لم تفرق بدورها وكما فعل الغرب بين عقل محض وبين عمل منفصل عنه ... أو بين الارادة (التى لاتعرف لها اسما أو وظيفة منفصلة) بل تجمع بين تلك الوظائف فى وحدة لاتتجزأ تطلق عليها اسم (KALPANA) .

ونفس الاختلاف نجده بين المفهوم الهندى للذاكرة التى تعنى العادة عندها (SAMSKARA) وللنفس ولمصدرها ومصيرها ... الخ .

ان مثل هذه الاختلافات فى المفاهيم حول الوجود الانسانى ومعناه وما يترتب عنها من اختلاف فى الانماط السلوكية لا يجب أن تعنى بالرغم من كل التعارض القائم بينها، انعدام وجود أى تشابه بين

بنى الانسان، كما انها لا يجب ان تؤخذ فى نفس الوقت وكما يحاول الغرب ذلك، كمعيار لسلامة مفاهيمه الوجودية تلك وسوية السلوك المترتب عنها وخطأ المفاهيم الوجودية الأخرى وعدم سوية السلوك المترتب عنها، بل انها تؤكد فقط مدى الدور الذى تلعبه المعطيات الحضارية والثقافية والاجتماعية فى تشكيل سلوك الافراد والجماعات على السواء .

ونورد فيما يلى نماذج من تلك الاختلافات بين بعض الانماط السلوكية فى العالم العربى الاسلامى ، خاصة وفى العالم الثالث عامة، وبين الانماط السلوكية الغربية :

(١) ان ظاهرة التذكر (Le Souvenir) تعد واحدة من الظواهر النفسية التى يشترك فيها كل انسان ، بل وتشترك فيها معه بعض الحيوانات كذلك، ولكن ذلك لا يعنى فى نفس الوقت وكما كانت تعتقد الدراسات النفسية الغربية، أن التذكر يتم بنفس الطريقة لدى كل الافراد أو الشعوب ... أى بطريقة الترابط العنقودى التى قالت تلك الدراسات أنها الطريقة الوحيدة .

فلقد كشفت دراسات نفسية جديدة حول العالم الثالث بصورة عامة، أن مثل هذه الطريقة فى التذكر لا وجود لها لدى قبائل الكبيل (Kpelle) بليبيريا مثلاً (٥) .

(٢) وبالنسبة لعقدة ,,أوديب,, (Complexe d'oedipe) التى ظلت حتى السبعينات من هذا القرن مسلمة لاتناقش وقابلة للتطبيق لاعلى الاحياء فحسب بل وعلى الأموات كذلك (بهدف تحليل الدوافع التى أدت بالعظماء فى التاريخ الى القيام بما قاموا به من اعمال كبيرة) عن طريق ما يعرف بعلم النفس التاريخى (٦) (La Psychohistoire) أكدت بحوث حديثة أخرى انعدام وجود مثل تلك العقدة فى المجتمع

الايروانى (٧) وفى المجتمع الجزائري كذلك (٨) ... وفى غيرها من المجتمعات العربية الاسلامية الأخرى .

بل لقد أكدت تلك البحوث انعدام هذه العقد حتى بالنسبة لبعض المجتمعات الغربية ... الأمر الذى جعل الاخصائى النفسى الامريكى جيفرى ماسون (Jeffrey Masson) (٩) يعلن صراحة ان التحليل النفسى برمته ليس سوى تعبير عن سوءنية صاحبه (فرويد) فى حين يؤكد الباحث البلجيكى (Jacques Van Rillaer) انه لا يعدو أن يكون ضربا من الوهم (١٠) .

ونفس الحقيقة تصدق على عقدة ,,الكتررا,, (Complexe d'Electra) وعلى ظاهرة المراهقة (L'adolescence) التى لا يعرفها البعض من شعوب العالم الثالث اطلاقا .

(٣) وظاهرة الخمول ... أو الكسل (La Paresse) التى اعتبرها الاستعمار الغربى سمة من سمات بعض الشعوب التى كانت خاضعة له (الجزائر مثلا) ونتاج طبيعى لتكوينها ثبت فى النهاية أنها ليست فى الحقيقة سوى رد فعل طبيعى ووقائى من طرف تلك الشعوب تجاه عمل مكرهه عليه من طرف مستعمرها، ذلك العمل الذى تدرك بالتالى أنه لن يقودها الى أى نتيجة ايجابية بالنسبة اليها مهما ضاعفت منه أو تحمست له (١١)

(٤) وظاهرة ضالة النتائج التى تكشف عنها الاختبارات النفسية الغربية (Les Tests) بالنسبة لأطفال العالم العربى الاسلامى و لأطفال العالم الثالث كذلك، (اختبارات الذكاء مثلا) لاتدل على تخلف عقلى لدى هؤلاء الأطفال بقدر ماتؤكد مدى اختلاف المضامين الحضارية والثقافية والاجتماعية الغربية لتلك الاختبارات عن المعطيات الثقافية والحضارية والاجتماعية للطفل العربى الاسلامى، الامر الذى يجعله

لايستجيب لها بالتالى بنفس الطريقة التى يستجيب بها لها أطفال الغرب ... وحتم بالتالى تعديل الكثير من مضامينها كما حدث ذلك بالنسبة لاختبار بينيه ستانفورد (Binet Standford) للذكاء فى مصر فيما عرف بعد ذلك باختبار الزمالك للذكاء.

(٥) اختلاف الامراض العقلية أو النفسية تسمية واعراضا وعلاجا فى البلدان العربية الاسلامية وفى بلدان العالم الثالث عنها فى البلدان الاروية ... بل اختلافها داخل هذه البلدان ذاتها .

فالفصام (La Schizophrénie) مثلا الذى يعتبر واحد من الأمراض النفسية الاكثر شيوعا فى العالم (٥ أشخاص من بين كل ألف شخص يصابون به) لا يختلف فحسب فى تعريفه وفى تسميته بين الدول الاسكندنافية مثلا وبين اسبانيا والمانيا الغربية ، حيث تطلق عليه هذه الأخيرة لا اسم الفصام بل ,,الخلل فى نمو السمات الفكرية,, (Paraphrénie Involutive) ، وبين اسبانيا والفلبين وتطلق عليه اسم ,,الكورو,, (KORO) بل يختلف فى أعراضه كذلك (١٢)

فهو يظهر فى هذا البلد الأخير وفى البلدان المجاورة له فى جنوب شرقى آسيا فى صورة مخاوف مرضية تنتاب المصاب به وتجعله يخشى احتمال تقلص عضوه التناسلى وزواله داخل بطنه ... والتعرض للموت بالتالى ... وفى صورة خلل حسى - حركى وصداع حاد لدى شعوب بحر الكاريبى ... وفى شكل ازيمات مفاجئة تفقد القدرة على الكلام أو الحركة أو البصر ... وفى نفس الذى يظل فيه الشعور يقظا، لدى السود بالولايات المتحدة الامريكية .

وكما يختلف الفصام فى تسميته وتعريفه وأعراضه من مجتمع الى آخر فانه يختلف كذلك فى وسائل علاجه .

ويتجلى هذا الاختلاف من بين ما يتجلى فى موقف الأسرة العربية الإسلامية والأسرة فى العالم الثالث بصورة عامة من المصاب بهذا المرض أو غيره من الأمراض العقلية الأخرى ذلك الموقف الذى يقوم أساسا، ومنذ أكثر من أربعة عشرة قرنا خلت ، على احتضان المريض العقلى والتعاطف معه الى درجة التبرك به باعتباره اصبح، بذلك المرض الذى أصابه، وليا من أولياء الله الصالحين ... أو درويشا ...

هذا الموقف يختلف تماما عن موقف الرفض والابعاد الذى وقفته الأسرة الأوروبية بالامس من المريض العقلى، والذى دفعها بالتالى الى ابعاده عنها واللقاء به داخل تلك الملاجئ العقلية المزرية التى لا يجد فيها من علاج سوى التعذيب والحرق بالنار حتى الموت بدعوى تطهيره من الروح الشيطانى الذى سكنه (١٣) وهو ذات الموقف الذى يدفعها اليوم الى التخلص منه داخل المستشفيات العقلية بدعوى عجزها عن تحمل مشاكله أو الايفاء بمعيشتته .

ولا نظن أننا فى حاجة هناك الى التذكير بأنه بفضل مثل ذلك الموقف التعاطفى مع الفصامى، (ومع المريض العقلى عامة) استطاعت الأسرة العربية الإسلامية، والأسرة فى العالم الثالث، أن تنجح فى علاج العديد من تلك الأمراض التى وقف أمامها الطب النفسى الغربى عاجزا ... (١٤) وأن تؤكد ان البعض من طرق علاجها التقليدى (١٥) لاتقل ايجابية عن ذلك الطب الحديث .

ولعل ذلك هو السر فى شروع الغرب منذ السبعينات من هذا القرن بصورة خاصة فى تخصيص لأول مرة عدة مؤتمرات وملتقيات دولية للعلاج النفسى والتقليدى فى بلدان العالم الثالث، وفى مطالبته كذلك بقيام تعاون أوثق بين هذا النوع من العلاج وبين طبه النفسى الحديث .

(٦) وهناك أخيرا و ليس آخرا ظاهرة الحلم (Le rêve) و اختلاف درجة تردده اثناء النوم بين البعض من الشعوب العربية الاسلامية، (قبائل التيميار temiar بماليزيا) وبين الشعوب الاوروبية ... فقد ظلت الدراسات الغربية (خاصة دراسات جوفيه وغيره (M. Jouvet et Kleitman) (١٦). تعتقد ان الحلم واحد في درجة تسلسله وتردده أى تكرر حدوثه لدى كل انسان الى أن ثبت مؤخرا العكس (١٧).

ان مثل هذه النماذج التى يصعب هنا الاستمرار فى سردها لم تؤكد فقط للغرب ، ولتلامذته، مدى عبث محاولة التطبيق الأعمى لنتائج دراساته النفسية تلك على شعوب العالم الثالث بصورة عامة بل كشفت له كذلك وفى نفس الوقت عن العديد من العيوب المنهجية والنتائجية التى تتسم بها تلك الدراسات حتى بالنسبة للمجتمعات الاروية نفسها ... وهى العيوب التى نكتفى بالاشارة الى البعض منها فيمايلي (١٨) :

(١) الوسط المغلق (Le Milieu Clos) الذى تجرى فيه تلك الدراسات (عينات صغيرة جدا ومحددة بطلبة قسم واحد من أقسام بعض الجامعات أو بفتة واحدة من عمال بعض المصانع مثلا) الأمر الذى يجعل نتائجها لاتصدق بالتالى حتى على الوسط الذى جرت فيه (الجامعة ... أو المصنع فضلا عن صدقها على المجتمع الاروى أو الامريكى بأكمله .

(٢) التمرکز الجنسى ... الأوروبى (l'Européocentrisme) الذى جعل العلماء الأروبيين يتجاهلون واقع العالم العربى الإسلامى والعالم الثالث، بدعوى تشابه الانسان فى كل زمان ومكان، تلك المسلمة التى بنوا عليها كل بحوثهم تلك والتى اثبتت الاختبارات العبر قافية (Lest Testes Transculturels (Triandis)) مؤخرا عدم صحتها .

(٣) تزايد الصعوبات التي تعترض طريق علم النفس نحو تلك العلمانية المحضة التي توهم علماء النفس في الغرب أنهم واصلون به اليها خاصة بعد انهيار العديد من النظريات النفسية، وبروز شبه علم النفس من جديد (La Parapsychologie) (١٩) وامتداد ظواهره الى المجتمعات الاروية ذاتها (التخاطر La Télépathie) والمعرفة المسبقة ببعض الاحداث (La Précognition) ... الخ ...، وتزايد اقبال الأروبيين على المنجمين المشعوذين ... وهي الظواهر التي كانوا يعتقدون أنها من خصائص العالم الثالث المختلف .

وأمام مثل تلك المعطيات الجديدة يسلم أولئك الاخصائيون في النهاية بأن جوهر الحياة الانسانية روعي قبل كل شئ وبأن البعد الماورائي هو البعد الاساسي في تلك الحياة ولعل ذلك ما يفسر تلك العودة المفاجئة لعلم النفس الى الفلسفة ، عن طريق المدرسة الظاهرية (La Phénoménologie) في بدايات هذا القرن وعن طريق المدرسة الحيوية والوجودية في الوقت الحاضر ... من خلال ما يعرف بعلم النفس الماورائي (La Métapsychologie) وهي العودة التي اعتقد أكثر من باحث غربي انها مستحيلة ...

ان هذه الصورة الموجزة لواقع الدراسات النفسية (الغربية) في العالم العربي الاسلامي وفي العالم الثالث ولممارساتها وتطبيقاتها فيه، تؤكد لكل من لم يتأكد بعد اننا نواجه مشكلا حقيقيا وليس مفتعلا ولكن تلك الصورة لايجب أن تعني وكما قد يتبادر الى البعض من الازهان دعوة للعالم العربي الاسلامي أو للعالم الثالث لرفض تلك الدراسات جملة وتفصيلا ... فلا نعتقد ان ذلك ممكن في الوقت الحاضر فضلا عن ان يكون في مصلحة هذا العالم ... خاصة اذا ما تذكرنا وذكرنا بعدة حقائق .

- (١) مدى التقدم الذى حققته تلك الدراسات خاصة على مستوى المنهج ... والتطبيق .
- (٢) أن ما يقرب من ٩٠٪ من الاخصائيين النفسيين فى العالم (٢٠) اليوم من الغرب (أكثر من نصفهم فى الولايات المتحدة الأمريكية).
- (٣) ان ما يقارب ٨٥٪ من الكتب ومن المجلات (٢١) ومن المخابر المتخصصة فى علم النفس غربية (أكثر من ثلثها أمريكى) .
- (٤) ان ما يقارب ٨٩٪ من الاخصائيين النفسيين فى العالم العربى الاسلامى وفى العالم الثالث تلقوا أو يتلقون تخصصهم فى الجامعات الغربية وتحت الاشراف المباشر لاساتذتها .
- (٥) ان ما يقارب ١٠٠٪ من الندوات والملتقيات والمؤتمرات الخاصة بعلم النفس وبمختلف فروع غربية (٢٢) لكل ذلك فان تلك الصورة يجب ان تعنى فقط بالنسبة للعالم العربى الاسلامى وللعالم الثالث، وفى الوقت الحاضر مطالبة له بالعمل وبسرعة على افراغ تلك الدراسات من محتواها الغربى الاستعمارى بهدف تكييفها مع واقعه الحضارى والثقافى المتميز ، ومع مشاكله المتميزة كذلك، كخطوة أولى و أساسية لاقامة دراساته النفسية الخاصة فى المستقبل .
- ومثل هذا المشروع ممكن بقدر ما هو ضرورى .
- فهو ممكن لأن الدراسات النفسية الغربية بالرغم من التقدم الخبير الذى حققته فى الغرب، لاتزال فى بداية الطريق ولم تشهد نفس التقدم الذى حققته علوم أخرى ... كالفيزياء مثلا ... ومن ثم فان ربطها بواقع العالم العربى الاسلامى والعالم الثالث ممكن اليوم وليس غدا .

ان ذلك لايعنى وكما يدعى البعض انكار الطابع الموحد والعالمى لهذا العلم ولغيره من العلوم الأخرى، حيث أن واحدية العلم

لا تمنع أن يختلف فى خصائصه وفى ممارساته وأهدافه ... تبعاً للمجتمع وللوسط المتواجد فيه .

وهو ممكن لأن الشعوب العربية الاسلامية بصورة خاصة وشعوب العالم الثالث عامة، تملك فى هذا الميدان، وفى غيره من الميادين الأخرى تراثاً قلّ أن يضاهيه تراث أى أمة أخرى .

ففى القرآن الكريم ، كتاب المسلمين الأول ، وفى الحديث الشريف - كذلك تفصيلات دقيقة حول النفس وأصلها وماهيتها وأحوالها ومصيرها وتحليل ضاف للسلوك الانسانى وللدوافع المختلفة التى تحركه ابتداءً من دوافع المال والسلطة الى دافع العيش والجنس، وللعقل ومهامه، وللخوارج المختلفة التى تجيش فى عمق الانسان من حب وكره، ونفاق ورياء، وخيانة ووفاء، وفرح وبكاء وأمل ويأس، وندم وحسرة وألم ولذة ... وفرح ... وحزن ... وضحك وبكاء ... وتدبر واعتبار بقدر ما فيه من وصف للأمراض النفسية المختلفة مثل الغضب والحقد والحسد والغرور و التكبر والظلم والغيرة والوسواس والوهم والحصار والجنون ... الخ ... ومن طرق لعلاجها كذلك (٢٣) .

وفى التراث الصوفى الاسلامى، بالرغم من اقتصره على تجربة خاصة هى التجربة الصوفية، وصف دقيق كذلك للنفس البشرية - وتحليل عميق لاغوارها وأحوالها وما يعتريها من قبض وبسط، وحب ووجد، وامل ورجاء، وشوق وهيام الخ ...

وفى دراسات وممارسات حكماء الاسلام ومفكره ثروة نفسية سبقت بنتائجها وفى أكثر من مجال ، النتائج التى لم تبدأ الدراسات النفسية الغربية فى التوصل الى البعض منها الا بعد ذلك بأكثر من عشرة قرون بالرغم من توفر وسائل التحليل والملاحظة والتجربة لديها .

يكفى أن نشير فى هذا الصدد وعلى سبيل المثال لا الحصر الى سبق المعتزلة (النظام) لفوندت (Wundt) وويبر وفختر (Et Weber) Fechner) الى اكتشاف عتبة الاحساس (٢٤) (La Loi Du Seuil) والى سبق الغزالي^(٢٥) للمدرسة الشكلية (La Gestalt — Psychologie) فى قولها بالطابع الكلى لظاهرة الادراك وللأخصائى الأمريكى فى التعلم (تولمان E. Tolman) فى قوله بالطابع التوقعى القصدى فى عملية التعلم (Sgn. Gestalt - Expectation) وهو الاكتشاف الذى دحض التفسير الشرطى والتفسير الارتباطى (٢٦) لهذه العملية، والى سبق ابن سينا (توفى ٤٢٨ هـ (٢٧) ومحمد بن بكر الرازى (توفى ٣٦٤ هـ) (٢٨) ، لفرويد فى استخدام التحليل النفسى لمعالجة المرضى العقلين، بل الى تخصيص مستشفيات لهم، والى سبق الراغب الاصفهانى ،، توفى حوالى ٥٠٠ هـ (٢٩) وابن عربى (٦٣٨ هـ) (٣٠) وابن مسكويه (٣١) اضافة الى الامام الغزالي (٣٢) فى استخدام ذلك التحليل فى معالجة الامراض الخلقية كذلك مثل الغضب . . . والحسد والغيرة .

وهذا المشروع ممكن اخيرا وليس آخرا بعد مطالبة الغربيين أنفسهم أمام فشلهم فى حل العديد من المشكلات النفسية التى تتخبط فيها مجتمعاتهم (الانتحار ... الادمان على المخدرات ... الارتفاع المتزايد لنسبة الامراض العقلية) (٣٣) بقيام تعاون أوثق بين التراث النفسى العربى الاسلامى ، خاصة وبين دراساتهم (٣٤) وهذا المشروع ضرورى كذلك وبالتالي لأنه لا يمكن للعرب والمسلمين، ولبقية شعوب العالم الثالث الأخرى، أى يحققوا أى تنمية، حتى بفهومها المادى المحض ، فى غياب مثل هذه الدراسات، حيث أن مشكل التخلف بالنسبة للعالم الثالث لا يمكن البحث عنه فى الاقتصاد كما يلاحظ (م . راو M. RAO) فى بحث له، عن الموضوع بل فى نفسية

السكان . وهو ضرورى كذلك لأنه لا يمكن للعرب و المسلمين بصورة خاصة أن يتحدثوا عن أى غزو ثقافى غربى لبلدانهم فى الوقت الذى يستمرون فيه بتجاهلهم لتراثهم، فى التمكين لذلك الغزو ولادواته الاساسية المتمثلة اساسا فى العلوم الاجتماعية : (او الانسانية) ، وعلى رأسها علم النفس، من محاولة النيل من اعز ما لديهم: شبابهم. ولكى يتحقق مثل ذلك المشروع فلا بد أن تتوفر له بعض الوسائل والظروف الموضوعية والتي من أهمها :

- (١) احياء كل الجوانب الايجابية من التراث العربى الاسلامى فى ميادين العلوم الانسانية بصورة خاصة، وفى ميدان علم النفس بصورة اخص ... وذلك بهدف التمكين أكثر للاجيال العربية الاسلامية الحاضرة والمقبلة من الاطلاع على تراثها التى تكاد، أمام تجاهل الغرب له واهمال المسلمين للعديد من جوانبه، تجهل كل شىء عنه ...
- (٢) ترجمة ذلك التراث الى اللغات العالمية ... مع ترجمة أهم الكتب والمجلات الاجنبية المتخصصة فى علم النفس الى اللغة العربية
- (٣) تشجيع البحوث النفسية، خاصة التطبيقية منها والمرتبطة مباشرة بالمشاريع التنموية للبلاد العربية الاسلامية (خاصة فى ميادين التربية ... والصناعة ... والصحة والدفاع) وكذلك العلوم الاخرى المرتبطة بهذه البحوث خاصة الفسيولوجيا والبيولوجيا وعلم النفس الصيدلى ، والطب وعلم الاعصاب والصناعات التطبيقية الأخرى ... الخ ... مع ربط تلك البحوث بصورة أوثق بمشاكل العالم العربى الاسلامى .
- (٤) توحيد المصطلحات النفسية على مستوى العالم العربى الاسلامى وذلك بوضع قواميس موحدة فى علم النفس .
- (٥) اصدار دوريات ومجلات نفسية عربية اسلامية متخصصة فى مختلف فروع علم النفس ... التى تهتم العالم العربى الاسلامى .

(٦) عقد ندوات وملتقيات ومؤتمرات دورية و دولية لعلم النفس فى العالم العربى الاسلامى ... يشارك فيها، اضافة الى المتخصصين من أبناء هذا العالم، كل العلماء المهتمين بقضايا العرب والمسلمين ... بالنسبة لهذا الموضوع (٣٥)

تلك هى بعض الخطوات العملية التى لانشك أنها اذا ما تحققت ، كفيلة باخراج الدراسات النفسية فى العالم العربى الاسلامى من المأزق الذى تتخبط فيه اليوم وبتمكينها من الالتحام أكثر بمشاكل هذا العالم ... فى انتظار عودتها للاسهام من جديد وعلى المستوى العالمى فى هذا الميدان الذى نحن أول من يعترف أنها قد تخلفت فيه اليوم كثيرا .

هوامش

- (١) د . مصطفى سويف : علم النفس الحديث ، مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٦٧م . - ص ١٧٢ .
- 2) Gustave Jahoda: Revue Internationale des sciences Sociales, Vol. XXV, No. 4, 1973, p. 505.
- (٣) عباس محمود العقاد: الانسان فى القرآن الكريم ، دار الهلال القاهرة، ص ١٣ .
- 4) P. Masson Oursel: La Philosophie Comparée, Alcam, Paris, 1931, p. 137.
- 5) G. Jahoda: Rev. Intern. P. 505.
- 6) Loyd de Mause; The History of Childhood.
- 7) Haritun Davidian: Application des théories Psychologiques dans le contexte culturel Iranien, in Rev. Intern. des Sciences Sociales.
- 8) Foughali Marie José: L' Image du Père chez l'enfant Algérien, OPU, Alger, 1984, p. 260.
- 9) J. Masson: Le Réel escamote, Aubier, Paris 1984.
- 10) J. Van Rillaer: les illusions de la psychanalyse, édit. P. Mardaga, Bruxelles.

- 11) F. Fanon: Etudes et Recherches sur la Psychologie en Algérie, CRIDSSH, Oran.
- 12) Joseph Westermeyer: The American Journal of Psychology, Feb., 1986 nin Science et Vie No 822, Mars 1986.
- 13) Ladge Patch: A Manuel of Mental Diseases.
- (١٤) التقرير السنوى لمنظمة الصحة العالمية ، ١٩٨٦م .
- 15) le Monde 20 Décembre, 1981.
- (١٦) من أشهر الخبراء الغربيين فى دراسة النوم ... و الاحلام .
- 17) Olga Petter Quadens; In Revue des Sciences Sociales Vol. XXVI, No. 4. 1974.
- 18) G. Jahoda: In Rev. Intern. Vol. XXV, 1973.
- 19) Tyrrel Parapsychologie, Payot, Paris, 1970.
- (٢٠) كان هناك فى سنة ١٩٦٧م، ١٦٠٠٠ عالم نفس و باحث بأمرية، ٨٠٠ فى كندا ٦٠٠ فى اليابان ٣٠٠ فى هولند .. وفى العالم العربى الاسلامى فى نفس السنة ٣٣ فى مصر، ٢٢ فى تركيا، ٢٧ فى الباكستان: هذا العدد الآخر حتى لو تضاعف لبقى غير كاف اليوم .
- (٢١) لعل المجلة النفسية الوحيدة التى عرفها العالم العربى هى ,,مجلة علم النفس التكاملى,, (١٩٤٧ - ١٩٥٣م) (د. يوسف مراد) .. ولا تعلم بوجود مجلة أخرى فى العالم العربى اليوم .
- (٢٢) لأول مرة عقد ملتقى بالمملكة العربية السعودية فى بداية الثمانينات حول علم النفس الاسلامى، وملتقى دولى حول علم النفس بمدينة (سوسة) بتونس فى منتصف السبعينات .
- (٢٣) عبدالكريم العثمان : الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٦٣م ، مقدمة د . أحمد فؤاد الاهوانى .
- 24) A.N. Nader: Le Système Philosophique des Mu'tazila, édit, les lettres Orientales, Beyrouth, 1956, p. 225.
- (٢٥) البخارى حمادة : الادراك الحسى عند الغزالى، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ١٩٨٦م، الفصل السادس .
- (٢٦) البخارى حمادة، التعلم عند الغزالى : ش . و . ن . ت . الجزائر، ١٩٨٦م الفصل الخامس .
- (٢٧) القانون ... والشفاء ، لابن سينا .
- (٢٨) ,,الطب الروحى,, أو طب النفوس (انظر الفهرست لابن النديم طبعة طهران ١٩٧٠م، ص ٧٧ .
- (٢٩) الذريعة الى مكارم الشريعة .
- (٣٠) تهذيب الاخلاق، مطبعة كردستان (الرسائل ١٣٢٨هـ) .
- (٣١) تهذيب الاخلاق ، وتطهير الاعراق، المطبعة الحسينية، مصر، ١٣٢٩هـ .
- (٣٢) حامد عبدالقادر، العلاج النفسى، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٤٧م، ص ٥١ .

- (٣٣) قاربت عدد حالات الانتحار في فرنسا سنة ١٩٨١م، ٢٥ ألف، منتحر وفي اليابان ٢٤ الف وفي السويد ٢٧ الف، وضعف هذا العدد تقريبا في الولايات المتحدة الامريكية لوموند :
١٩٨٦/٦ م - (Le Mounde)
- (٣٤) لعل آخر مؤتمر غربي خصص للطب التقليدي في العالم الثالث هو مؤتمر باريس سنة: ١٩٨٤م، وقبله كان مؤتمر قرطبة (Cordoue) ١٩٧٩ م حول علم النفس ما وراء الطبيعة في العالم الثالث .
- (٣٥) يبلغ عدد الدوريات والمجلات المتخصصة في علم النفس في الولايات المتحدة الامريكية، ١٢٠ دورية ومجلة اليوم تقريبا .

